

بنية الاغتراب

الدكتور: أحمد مداس

إن الاغتراب هو عدم الانسجام مع الحياة بفعل **الفقدان والنقص** وغياب **التعويض** الذي يرفع حال الشعور بالسلبية، ويُحل حال الإيجاب. ويتعلق بالإنسان في ارتباطه بالمكان والزمان والقيم المعنوية المتقدمة والصراع داخل علاقات الحضور والغياب، فتتمثل الأوضاع حيناً، وتتقابل حيناً آخر، ويحدث تحوّل من وضع إلى آخر، وكلها صور تسيرها الرؤية الخاصة للشاعر.

تحدد علاقات الحضور والغياب في ثلاث حالات يتعين معها التوتر والصراع والانعزال الشعري؛ ذلك أن الحضور وجود يعادل التعويض، والغياب عدم يعادل الفقدان والنقص، يترتب عنهما الموقف الشخصي والجماعي، ويتم التفاعل معهما بالرفض أو بالقبول، لتنشأ الحالات الثلاث:

الحال الأولى: الحضور + الغياب = التوتر والصراع، وهو الحرمان الجزئي.

الحال الثانية: الحضور الكلي بما يعادل وضعاً موجباً تماماً ينتفي معه الانفعال، ويزول فيه الصراع، وهو المراد غير المحصّل.

الحال الثالثة: الغياب الكلي بما يعادل وضعاً سلبياً تماماً يشتدُّ معه وفيه الانفعال والتوتر، ويتحقق معه الشعور بالاغتراب.

يقتضي الحضور وجود بعض العناصر، كما يقتضي الغياب غياب بعضها، وهي الإنسان والمكان، والزمن، والقيمة المعنوية، والصراع.

1. المكان:

عاشت الشاعرة مرحلتين، وفيهما معا تنشأ مكانا يغيب عنها، وتغيب عنه وهو المراد للعيش. ويحضرها مكان تعيش فيه عنوةً؛ لأنها ترفضه ولا ترضى به بديلاً عن المراد. ففي المرحلة الأولى، كانت الأرض كلها -بوصفها مكاناً- تضيق بها لخلوها من إبراهيم، فكان الاغتراب فيها، والألفة في السماء حيث أحوها، وإن كان السبيل إليه يمر بالفناء المقوت عندها. وفيها -أي المرحلة- تمثل الشاعرة نموذج الإنسان المنتهي المتشائم، والمهزوز مختل التوازن.

وفي المرحلة الثانية، تعيش الاغتراب في وطنها دون الحرية الغائبة، فلما انتقلت إلى انكلترا، وحضرت الحرية، عاشت الاغتراب فيها لغياب الأرض والتحقق من اغتصابها؛ ليتعلق -الاغتراب- بالفقدان رغم التعويض الناقص! مما يطيل الشعور به حتى يتم الاتحاد بين الوطن والحرية بما يساوي العودة. إن الحركة هنا انتقال من وضع سالب إلى آخر كان سالبا في المرحلة الأولى، وهو الآن في حال الإيجاب بفعل التحوّل الحاصل في الموقف، فهي الآن إنسان سوي متفائل ومتزن.

- شمسك ظلت قصية

وأرضي ظلت عصية

وعند أهيارات جسر التواصل حاولت

حاولت حاولت لكن

ولم يبق مني على راحتك سوى غيمة

عابرة

تجمّد فيها الشرار

وغاب حضوري، رحلت بعيدا وغصت

بعيدا، إلى القاع غصتُ أنادمُ حزني

أعاقرُهُ في غيابة جبّ بغير قرار¹

2. الزمان:

يتوافق الاغتراب مع الزمن، ولذلك عاشت ثلاثة أزمنة؛ أولها زمن الحرمان الأول بفقدان إبراهيم. والثاني زمن الحرمان من الهوية والوطن بما ولّد زمن الاغتراب، وهو الزمن الثالث. فكانت كل الأزمنة انحسارات نفسية، ويبقى زمن الحضور الكلي الزمن الوحيد للاتساع ولم يحدث. إن الانتقال من زمن لآخر تحوّل على الحقيقة، وفي جميعها تماثلت الأوضاع، وما تعارضت إلا مع الرابع-زمن الاتساع الغائب-، الذي يبقى أملا متعلّقا بتغيير الوضع والصراع.

-تنبني الرياح في هبوبها

عن فارس يجيء-----[الأمل]

لا واهنا ولا بطيء

تقول لي يجيء من طريق

تشقها من أجله الرجوع-----[القوة]

والبروق

هلا سألت لي الرياح يا

عرافة الرياح

متى يجيء الفارس المنذور؟

حين يصير الرفض-----[زمن الرفض]

محرقة وجلجلة

تلفظه أحشاء هذي الأرض...⁽²⁾-----[المكان = الأرض]

-(حين تتم دورة الفصول-----[الانتهاء الزمني]

ترجعه مواسم الأمطار-----[العودة/التكرار/التجدد]

يطلعه آذار-----[زمن الظهور والعودة والتجدد]

في عربات الزهر والنوار⁽³⁾-----[الشهادة/النصر]

3. الصراع:

لقد تحوّل الصراع من صراع الإنسان مع الزمن إلى صراع الإنسان مع الإنسان، وكلاهما عند الشاعرة مفروض، والثاني كان يمكن تلافيه على عكس الأول، ويبقى المأمول من الصراع ممارسة التحرر، فإن تحقق النصر والعودة وتّم استرجاع الوطن وسادت الحرية، انعدم الصراع وتساوق الوضع مع الحضور الكلي وزمن الاتساع والصورة المنشودة للتعويض الكامل عن كل أشكال النقص والفقدان. وإلى حين تحقّقه، يتمثل الصراع في كل محطاته، لتمثّل حال انعدام الصراع تقابلاً مأمولاً مع حال الصراع القائم فرضاً، فيحدث معه التحوّل من سيء الأوضاع إلى أفضلها بوصفه تحوّلاً من الحرمان جزئياً وكلياً إلى التعويض المنشود.

-(يتمدد قلبي

يكبر قلبي-----[حال الانقلاب]

تقرب من قلبي المغلق-----[زمن الأسر والقيود والاعترا ب]

كل الأسوار

يتدفق فيه النهر القطبي-----[النقاء]

وتنمو فيه الأشجار-----[الحياة]

يرجع من منفاه إلى

قلبي الواسع وجه الإنسان⁽⁴⁾-----[الطبيعة الإنسانية/التحوّل]/[حصول التعويض]

4. الصورة:

في خطاب فدوى طوقان الشعري تتعين ثلاث صور:

الأولى، صورة التماثل مع غيرها، عائشة السجينة المعينة شخصياً، واللاجئة في

العيد المعينة صورةً تتكرر:

-(رسالة عائشة تستريح على مكثي....

ونابلس هادئة والحياة تسير كماء

النهر...)⁽⁵⁾.

-(أراك ما بين الخيام قبعتمثالاً شقياً

متهاكاً، يطوي وراء جموده ألماً عتياً

... يا للدموع البيض! ماذا خلف رعشة ومضها؟

أترى ذكرت مباهج الأعياد في (يافا) الجميلة؟)⁽⁶⁾

الثانية، صورة التعارض، حيث تتقابل مع الآخرين على مبدأ فقدان عندها

والاكتمال عندهم (وطن وحرية وهوية [تضمن حق العودة])؛ إذ ينعم الجميع بهذه القيم،

ويفتقدها الفلسطيني، مما ينقص سمته الإنسانية، وينمي روح الكفاح طلباً للخلاص، وهو

عداءً عند الخصوم.

Open the door!)-

Ouvré la porte!

افتح إت هادليت!

افتح باب!

وبكل لغات الأرض على بابي يتلاطم
صوت الجند) (7).

-(أقرأ خبراً كالأخبار:

[بيت لحم- فوجئ المزارعون في خربة بيت سكاريا بمجموعة من الجرافات خرجت من مستعمرة كفار عصيون
وشرعت في قلع المزروعات في أراضي تلك البلدة] (8).

فصار لشتات العالم هوية ووطن بعد أن حرموا الشاعرة ومن يماثلها منهما، وهو
تعارض.

الثالثة، صورة التحوّل من الاعتدال إلى الفقدان والنقص بغياب الأقارب إلى
الفقدان المزدوج بغيابهم وغياب الأرض. وهو تحوّل سالب مطلقاً يستدعي تحوّلاً موجباً
مطلقاً، يحصل فيه التعويض، لتتغير حال الإنسان.

-(رجوتك لا تحترق قشري بالسؤال ----- [رجاء= ترك السؤال]

لنلمس حزني ----- [من الحال الراهنة]

رجوتك حزني أعزّ وأقدس من أن يقال!) (9) [الرغبة الملحة العودة إلى الحال الماضية]

-(واليوم، ماذا غير قصة بؤسكن وعارها

لا الدار دار، لا، ولا كالأمس، هذا العيد عيد----- [المكان/الزمان]--- [التحوّل]

هل يعرف الأعياد أو أفراحها روح طريد) (10)----- [تماثل مع غيرها]

5. الإنسان:

إن القريب من الإنسان قرابة الدم والوطن بعيد؛ فهو الفقيد والشهيد والرفيق
السجين، وكلهم غائبون. والحي منهم بعيد غريب، رغم صفة الحضور في الأراضي المحتلة
أو في باقي دول الجوار إذ كانت هي في انكترا، أو حتى قبل ذهابها. هم القوم المشتتون لا
يجمع بينهم غير القضية الواحدة. هذه الحال بعد الاحتلال يُرجى لها أن تتغير دفعا للبعد
والاغتراب، فما يجري على الوطن والهوية والحرية يجري بالضرورة على الإنسان، لتكتمل
دائرة الوجود المقبول.

-(ونلاقيك، نلاقيك على

قمة الدنيا وحيدا يا بعيدا، يا

قريبا....

رأسك الشاحخة اليوم إلى القبة

فالصخرة في القدس احتوتك الآن⁽¹¹⁾

– (يفتح عينيه (إيتان) الطفل الإنسان

يا طفلي أنت غريق الكذبة----- [براءة الوافد]

والمرفأ يا (إيتان) غريق مثلك في

بحر الكذبة

يغرقه الحلم المتضخم----- [اغتراب الوافد= اغتراب أهل البلد]

أحشى يا طفلي أن يُقتل فيك الإنسان

أن تدركه السقطة أن----- [توقع التحوّل]

يهوي يهوي يهوي للقاع⁽¹²⁾----- [بمثال الكبار]

6. الرؤية:

بدأت الشاعرة علاقتها بالعالم منفردةً تشكو حالها وتصارع الزمن والضياع وأسئلة الوجود، حينما كان مصابها محصورا في إبراهيم وفي شعورها بالاغتراب، ثم تحوّلت إلى الرؤية الجماعية حين انتزع الاحتلال الوطن وحرّم أهله من الهوية والحرية وحق العودة، فتماثلت معهم، وأخيرا انفتحت على العالم حين صار الوجود مشتملا على تماثل وضع البؤس والحرمان بين شعوب العالم مع تماثل الأسباب.

– (وتلقفني في المدينة هذي الشوارع

والأرصفة

مع الناس، يجرفني مدها البشري،

أموج مع الموج فيها، على السطح

بغير تماس

هنا كان سوق النخاسة، باعوا هنا

والدي وأهلي

وهذي أنا اليوم جزء من الصفقة

الرابحة) (13)-----[الحال المفردة]

- (هنالك ضم (رقية) كهف رغب عميق كجرح القدر-----[من الأنا إلى الآخر]
(... ويا صورةً من رسوم التشرد، والذل، والصدعات الأخر) (14) -- [الجرح المماثل]

- (في شارعنا يمشي الأموات

يتوارون بظل الحائط أشباحا

وهياكل جوفاً غير خفاف غير ثقال

يا أخي غطي موتانا) (15)-----[التمائل مع الأهل/الحال المفروضة المرادة]

- (بدمي أخطُ وصيتي

أن تحفظوا لي ثورتي

بدمائكم

بجموع شعبي الزاحفة

فتح أنا

أنا جبهة) (16)-----[الذوبان في حركة الكفاح/رؤية قومية]

- (الموت يحوم في بلفاست

رأس كالزهرة ذهبية

قطفتها قبلة زمنية

في فيتنام

الحزن اليومي يلقح أرض فيتنام

فترعرع بسماد النابالم-----[الذوبان في حركة الكفاح/رؤية كونية
إنسانية]

في كل مكان طير الموت-----[العالم البائس]

(... يا رب لماذا مات الحب؟) (17)-----[القيمة الغائبة=الحب الإنساني]

ومع طول الأمد وفي لحظة يأس أو ثورة تستلهم من الحدث -حرب فيتنام- أمنية

تجرح الكبرياء، وتعصف بالوجود العربي، وتستصغر شأنه:

- (أواه وآه يا فيتنام

آه لو مليون محارب
من أبطالك
قذفتهم ريح شرقية
فوق الصحراء العربية
لُفرشتَ نمارق
ووهبتمو مليون ولود قحطانية(18)

ومن نصرهم ينتصرون للقضية ويرفعون عنها حالة الاغتراب كما رفعوها عن
أنفسهم، فقد سئم الناس (رشَّ السكر فوق الموت)(19).

يؤدي التماثل في كل المحاور السابقة ما يقوم مقام مفهوم الموافقة، ليؤدي التعارض
مفهوم المخالفة؛ لأن الرؤية الجماعية التي خصتها لمن تحب من الناس، ما كانت لتكون
لولا أنها عاشت ما عاشوا، وعانت ما عانوا، وقد نقلت شعورهم بشعورها، إذ أصابهم ما
أصابها أولاً، والشعور بهم وبمأساتهم شعور سابق عندها بالضرورة، وهكذا هو حال كل
التماثلات الحادثة مع غيرها. وأما مفهوم المخالفة المتساوق مع التعارض، فمثاله رؤيتها
للآخرين في نعمائهم في مقابل الضراء التي سيطرت على الحياة الفلسطينية؛ فما أصاب
الآخرين من خير الوطن والهوية والحرية، يخالفه ما أصاب فدوى والرفاق من شر الحرمان
من نفس القيم المعنوية. وعليه؛ لا يخفى حال الاضطراب والقلق والضياغ، وحياة التشرذ
وطغيان عاطفة الحنين، فقد فقدَ الناس الاتزان والألفة، واعتراهم الاغتراب وثقل القيد، ولم
يعد من حلٍّ يفصم هذه الحال إلا العودة، عودة اللاجئين وعودة المهاجرين والمهجَّرين،
فهي التعويض الحقيقي عن المأساة:

تضاد
فقدان ----- تعويض
ديمومة الفقدان = تداخل في الإثبات
التناقض
لا تعويض ----- لا فقدان
ما تحت التضاد

يتعيَّن مع ديمومة الفقدان اليأس الذي لا مفرَّ منه ولا رادَّ له، كما يتعيَّن الأملُ
الذي سيأتي لا محالة، قلبًا للوضع ورجاءً في التحوُّل. ويحمل الانتفاء معنى الكلية-التعويض
الكلية- وهو مردود بمحمول الخطاب، كما يحمل معنى التعويض الجزئي بربط الوطن

بالحرية؛ ففي فلسطين الأرض من دون الحرية، وفي لندن حرية من دون الوطن، ليكون العنصر الناقص في كل مرة سببا في نمو الاغتراب والإحساس بالقهر.

الهوامش:

1 - ديوان فدوى طوقان، دار العودة، بيروت، لبنان، ط1، 1978، عن الحزن المعتق، ص612-613. لم تثبت الشاعرة شكلا للكلمات خاصة أواخر الأفعال، فكل تاء يمكنها أن تكون للخطاب فتصرف الحديث إليه، أو تاء للمتكلم فتصرف الحديث إليها، وفي الحالين معا هو حديث التثاني والتباعد.

2- الديوان، نبوءة العرافة، ص591-592.

3- الديوان، نبوءة العرافة، ص601. ولها في الصفحة 572 تقديم للجزء [7] هو عينه هذا الملفوظ بتغيير النوار بالنور، وقد مر الحديث عنه مع النصوص المصاحبة في التأويل المجمل/الفصل الثاني، تنظر الصفحة 135 من هذا البحث.

4 - الديوان، بين الجزر والمد، ص623.

5 - الديوان، في المدينة الهرمة، ص576. هي (عائشة أحمد عودة) سجينة فلسطينية محكوم عليها بالسجن مدى الحياة، مثلتها من الأرض المحتلة حين كانت الشاعرة مقيمة في لندن، وفي الملفوظ ارتباط الإنسان بالمكان الواحد مع اجتماع البعد والغربة.

6 - الديوان، مع لاجئة في العيد، ص140-141.

7- الديوان، كوابيس الليل والنهار، ص585. (Ouvré) هكذا كتبت في الأصل، ربما أرادت المخاطبة بالمفرد (Ouvres) أو بالجمع (Ouvrez).

8 - الديوان، كوابيس الليل والنهار، ص586.

9 - الديوان، عن الحزن المعتق، ص613.

10 - الديوان، مع لاجئة في العيد، ص142. وفي الصفحة 143 قولها: (أختاه لا تبكي، فهذا العيد عيد الميتين)، تقصد اللاجئتين المحرومين من كل شيء، تعميقا لصورة الاغتراب.

11 - الديوان، إلى الشهيد وائل زعيتر، ص609. وهو شهيد حاله كحال منتهى حوراني.

12 - الديوان، إيتان في الشبكة الفولاذية، ص626-627-628.

13 - الديوان، في المدينة الهرمة، ص573-574-575. المدينة الهرمة هي لندن، في آخر النص تتخلى عن نغمة الانفراد وتعيد المقطع الأول كاملا بصيغة الجمع: (وتلقفنا في المدينة هذي الشوارع/ والأرصفة/ مع الناس، يجرفنا مدها البشري/ نموج مع الموج فيها/ نظل على السطح فيها/ بغير تماس) ص571.

14- الديوان، رقية، ص146.

15- الديوان، كوابيس الليل والنهار، ص582.

16 - الديوان، إليهم وراء القضبان، ص615. تقصد حركتي فتح والجبهة الشعبية من منظمة التحرير الفلسطينية.

17 - الديوان، كوابيس الليل والنهار، ص588-589.

18 - الديوان، أمنية جارحة، ص624.

19- الديوان، أمنية جارحة، ص625. للدلالة على القلة الفاعلة (فيتنام) والكثرة المستضعفة (العرب)، المكتفية بالرفض دون العزم على النصر.